كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة التاسعة باللغة العربية: مدن العراق كقلاع عسكرية

اسم المحاضرة التاسعة باللغة الإنكليزية : Iraq's cities as military fortresses

مدن العراق كقلاع عسكرية :

لم يكن للعثمانيين، عند دخولهم العراق، من الرصيد الحضاري ما يمكن أن يقدموه لحياة مدنية اصابها تدهور شديد، متنوع الجوانب، منذ عدة قرون .وكان الحكم العثماني يقوم بصفة عامة على قاعدة ابقاء الأوضاع على ما كانت عليه من قبل، دون تغيير حقيقي في جوهر العلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة. وتكشف أعمال السلاطين العثمانيين الأوائل في العراق عن أن نظرتهم إلى المدينة العراقية كانت تقوم على اساس انها ليست الا حصنا او قلعة مهمتها الرئيسة حفظ الأراضي التابعة للسلطان، ومركزاً لجمع الضرائب من تلك الأراضي وارسالها الى السلطة المركزية في القسطنطينية، وقد استلزمت هذه النظرة من الدولة العثمانية أن تمضي نظراً لإمكانيتها ومركزها ازاء القوة السياسية المتاخمة للعراق في سياسة اقرار الأوضاع القائمة فعلاً، محاولة الاستفادة من هذا الواقع الى اقصى حد ممكن، وعلى هذا فقد ترك السلطان سليم الأول مدن العراق الشمالية بيد الأسر والسلالات القبلية الموجودة في عهده، ولم يغير السلطان سليمان القانوني، عند فتح العراق سنة ١٥٣٤م، شيئا من هذه القاعدة، فاستمرت زعامات محلية وقبلية تسيطر على المدن الع ا رقية الواقعة في مناطق نفوذها.

وكان من نتائج فقدان الأمن، وشيوع الاضطرابات في النظم الادارية منذ انهيار الدولة العباسية، وما خلفته تلك الحروب الوحشية التي شهدتها مدن العراق وقراه على ايدي جيوش تيمور لنك وما أعقبه من غزوات القره قوينليين والآق قوينليين والصفويين، اضافة الى عجز القوة القبلية والريفية عن تشكيل حكومات مدنية مستقرة، ان تدهورت المدينة نفسها، فأهملت الأراضي الريفية الواقعة حولها، وشبكات الانهار والمصارف اللازمة للري والزراعة، فتعاظمت اخطار فيضانات الأنهار وحدثت المجاعات التي انتهت بعزل المدن عن بعضها وعن القرى المجاورة، وتدميرها، أو هجر سكانها منها تدريجيا.

ومن أهم المدن التي اندثرت في أوائل العصر العثماني، مدينة واسط الشهيرة ذات التراث الزاهر في القرون الوسطى، حيث أدى اهمال شؤون الري الى ابتعاد «الرماحية » مجرى دجلة عن المدينة، وجفاف مجراه القديم، ومثل ذلك حدث المدينة القريبة من النجف، وهي من المدن القديمة التي يرتقي

تاريخ انشائها إلى القرن الرابع عشر، فقد ادى اهمال العناية في مجرى الفرات، ان تحول مجرى جديد، فاضطر سكان الرماحية الى هجر مدينتهم، حتى غاب ذكرها تماما ثم زالت من الوجود.

ثم ان عوامل أخرى، كان اهمها النزاعات القبلية وتعرض المنطقة الى غزوات المعتدين المستمرة ادت الى انحطاط مدن اخرى كان لها شأن في العصور السالمية التي بلغ من تدهور أحوالها أنها أمست في القرن « اربل » الزاهرة، من أبرزها مدينة السادس عشر بليدة صغيرة يتنازعها حكام الامارات العشائرية القاطنة في المنطقة،ولحق التدمير مدن التخوم الع ا رقية الشرقية نتيجة لتوالي الاعتداءات الايرانية المسلحة، فاندثرت مدينة(حلوان)الشهيرة وتضاءل شأن البنديجيين(مندلي)ومدن منطقة (النهروان)التي طالما اشتهرت بالخصب والثروة الزراعية.

وامتد الخراب الى مدن العراق الرئيسة نفسها، فبقيت أسوار المدن الضخمة شاهدة على ازدهارها في العصور السابقة، بينما انكمشت مساحة الرقعة المسكونة داخلها، الى حد ان نصف الموصل كان حتى أوائل العصر العثماني، خرائب خالية من السكان، اما بغداد فقد كانت معاناتها تتناسب مع اهميتها الكبيرة فقد وصفت في هذه الحقبة بانها مجموعة من الازقة الضيقة، والبيوت المتهدمة وخربت معظم جوامعها التي استحال لونها الى السواد، وان ما بقي منها فيما عدا السوق لا يعدو أن يكون شبيها بالصحراء .

ولم تكن البصرة أحسن حالا فقد أدت أعمال العنف والتدمير التي تعرضت لها المدينة ابان القرنين الرابع عشر والخامس عشر، واهمال العناية بأنهارها العديدة، الى احاطة مياه المستنقعات بها وانتشار الأمراض فيها وخاصة وباء الطاعون فتركها أهلها تدريجيا ميسين وجوههم شطر نواحي(شط العرب) فأندرست بذلك معالم المدينة القديمة تماما.

وعلى الرغم من أن القرن السابع عشر كان بالنسبة الى ما سبقه من قرون، يعد عهد استقرار نسبي وثبات في نظم الحكم الا ان الضعف الشديد الذي كانت تعانيه السلطة المركزية العثمانية في العراق وغياب حكومات محلية قوية في مدن الرئيسة، لم يغير من أوضاع المدن الع ا رقية كثي ا ر، بل يمكن القول أن هذا القرن استمرار للحقب السابقة فيما يتعلق بعمارة مدن العراق، ونموها، ماعدا ان العثمانيين اهتموا في هذا القرن بتحصين المدن والعناية بم ا رفقها العسكرية من أب ا رج وخنادق،

تحسبا من غزو ايراني مرتقب في كل حين، فكان ذلك المظهر العمراني الوحيد الذي شهدته مدن العراق منذ اول العصر العثماني، وحتى سيطرة المماليك على مقاليد الحكم ونهوض الأسر المحلية فيه.